القسم الأول

كيف يَتَعَلَّم الإنسانُ اللّغةَ؟

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨].

obeikandl.com

الموضوع الأوّل

السَّكاكينى وتصوُّرُهُ الساذَجُ لمراحل تطوّر اللّغة العربيّة[1]

استغربت قبول أستاذنا الدُّكتور عبد الرحمن ياغيّ.. برأْى الأستاذ المرحوم خليل السكاكينى حول تطوّر اللّغة العربيّة. وذلك فى مقالته المنشورة فى جريدة الرّأى السيّاة ليوم الجمعة ١٠/١١/٢٠٠٠م في الصفحة السادسة والعشرين من القسم الأدبيّ فى الجريدة.

السَّكاكينى يقول: إنّ اللّغة العربيّة مرّت، فى تطوّرها، بثلاث مراحل: المرحلةُ الأولى: مرحلةُ قرينة «المعنى» أيْ: أنّ المعنى هو الذى يُحدّد العلاقة بين الكلمات. فإذا قلنا مثلا «الحجر قد كسر الزّجاج» فُهِمَ أنّ الحجر هو الكاسر والزّجاج هو المكسور. فليس من المعقول أنْ يكسر الزجاجُ الحجرَ. وفى هذه المرحلة لم يُفكّر العربى بحركات الإعراب، فقد يرفع الحجر وقد ينصبه وقد يجرّه، وقد يرفع الزجاج أو ينصبه أو يكسره.. كذلك.

والمرحلةُ الثانية: مرحلةُ قرينة «التّرتيب» وهى أنْ يأتى الفاعل، مثلا، قبل المفعول مثل «هَجَرَ موسى عيسى» فالهاجر هو موسى والمهجور هو عيسى. أىْ الفاعل هو موسى والمفعول هو عيسى.

أمّا المرحلةُ الثالثة: فكانت عندما اتّسعت فيها اللّغة وتعقّدت فيها الحياة العربيّة. فماذا يفعلون فى هذه المرحلة التى لم تَعُدْ فيها قرينةُ المعنى كافيةً ولا قرينةُ الترتيب؟ «حينئذٍ.. لجأوا – كما يقول الدُّكتور عبد الرحمن ياغى – إلى (مشروع التّشكيل)! تشكيل أواخرِ الكلماتِ، بل وأواسطها وسائر حروفها).

وهذه المراحل مقبولة «نظريًا» لكاتب يجلس وراء مكتبه، ويأخذ يُفكِّر فى كيفية تطوّر اللّغة العربيّة حتى وصلت إلى تشكيل أواخر الكلمات بل وتشكيل بُنية الكلمة كاملة!

ولكنّها.. غير مقبولة «واقعيًا» لأنّ النُّصوص التى بين أيدينا منذُ المهلهل وامرئ القيس لا تُسعفنا على قبول هذا التّصوّر. فامرؤ القيس جاء شعره مُعرَبا إعرابا كاملا، أو مُحرّكَ الأواخر حَسَبَ ما هو معروف فى الإعراب الذى استخرجه النُّحاة من استقراء النصوص من امرئ القيس حتى منتصف القرن الثانى فى الحواضر، وحتى نِهاية القرن الرابع

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٠م.

فــى البوادى. وكذلــك.. كانت بِنى الكلمات محرّكةً فى هــذه النُّصوص المُختلفة أو فى المُشافهات المُتعدّدة.

ولأننا لم نجد فى الحفريّات نُصوصا للُّغة العربيّة، يُمثِّل قسم منها المرحلة الأولى، وقسم المرحلة الثانية.. سواءٌ كانت مكتوبة على رِقاقٍ أو رقائقَ أو مكتوبة على حِجارة.

لو وُجِدَ حجرٌ أو حجارةٌ قد كتبت عليها جُمل كجملة: الحجر قد كَسر الزجاج.. لقلنا: إنّ هذه المقولة تعتمد على شــيء مكتوب. ولكنه لم يوجد شــيء من ذلك. ثم.. هل الحياة قائمة على الأشــياء الماديّــة وحدها كالحجر والزُّجاج أم أنّ هنــاك جانبا عاطفيًا قائما فى حياة الإنسان منذ أنْ وُجِد على الأرض. أمَا هبط آدمُ وحوّاءُ عليهما السّلام، وهما مُتحابّان متعاطفان؟ منذُ أنْ أكلا من الشــجرة المحرّمة وبدت لهما ســوءاتُهما (أى أصبحا يشــعران بالجنــس، لأنّ العورة بلا جنس ليســت عيبا يجب إخفاؤه). هــل يعتقد أن يتفاهما على الحجر والزجاج.. الزجاج الذى لم يُعرف إلاّ بعد رحيلهما عن هذه الدنيا بأدهار.. قبل أنْ يتفاهما على الحب الذى كان يجمع بينهما؟ قد يقال: إنهما كانا يتفاهمان عمليّا.. ولكننى لا أُصدّق أنهما ما كانا يضيفان إلى الجانب العمليّ بعض الألفاظ العاطفيّة المعنويّة.

– ومثلُ آدمَ وحواءَ.. البشرُ الذين جاؤوا بعدهما. ومثلُ هؤلاء البشر.. العربُ فى الجزيرة العربيّة. إنَّ نظريّة الانتقال، فى حياة البشر، من المرحلة الماديّة إلى المرحلة المعنويّة ثم إلى الجمع بين المرحلتين.. لا تعبِّرُ عن طبيعة الإنسان. فالإنسان منذُ أنْ وُجِدَ على وجه الأرض وهــو ذو طبيعة «معقّدة» فيها الجانب المادّى وفيها الجانب العقليُّ وفى الجانب العاطفيُّ. ولابدّ أنه كان يُعبِّر عن هذه الجوانب بالإشارة أحيانا وبالكلام أحيانا أخرى. بل إنَّ الإشارة فى الأشــياء الماديّة «دالّة» أكثر من الإشــارة فى الأشياء العاطفيّة والمعنويّة، مما يدفعه دفعا إلى الوسيلة الّلغوية التى تعبّر عن العاطفة والعقل.. تعبيرا ما. ومع أن نسبة المعنويات أقلّ فى بدايات الحياة – بَيْدَ أنها ليست منعدمة.

– ونحــن لا نصــدق مقولات ونظريّات يُكــذِّب بعضُها بعضا ثم نجعــل كلام الله وراء ظُهورنا. الله تعالى يقول عن آدمَ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣١ – ٣٢].

– فمعنــى ذلك أن آدم علّمه ربُّه لُغــةً قبل أن يُهبطه إلى الأرض. ثم تعلّم منه أبناؤه ثم

انقسم الناس شُعوبا وقبائل، وأصبحت كُلُّ جماعة فى بقعة من الأرض تنشئ لغةً خاصة بها. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ « [الروم: ٢٢]. وكانت بعض الشعوب تتقدّم وبعضها تتخلّف، تبعا لطبيعة المناخ والظُّروف التى تحيط بكلِّ شعب..

– أما اللّغة التى تعلّمها آدمُ – عليه السلام – فهى «العربيّة» غالبا. ثم رُفعت بعد انتهاء حياة آدم. والله أعلم.

– ذلك.. لقوله تعالى عن جهنّم، وجوابها له: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ « [ق: ٣٠]. وهذا يعنى أن جهنم تنطق بلسان المقال لا بلسان الحال. وليس ذلك بعجيب! فإذا كان الله تعالى قادرا على أن يُنطق الجلود وكُلَّ شىء يوم القيامة، كما فى قوله تعالى عن الكافرين: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت: ٢١]. فالله تعالى قادر أن يُنطق جهنّم، فليس لها أن تخرج على ناموس الآخرة العامّ. وبذلك.. تكون اللّغة التى بدأت بها الحياة الدنيا هى اللّغة التى تبدأ بها حياة الأُخرى كذلك.

– ثم.. نحن لا نزال نقول: «الحجرُ كسرَ الزُّجاجَ» أو: «كسرَ الحجرُ الزجاجَ» أى: نقدِّمُ الفاعل ونُؤخر المفعول. ولا نقدم الزجاج على الحجر، أى: لا نُقدم المفعول به على الفاعل، فى هذه الجملة، إلاّ فى النادر النادر، لأنّ التقديم للزُّجاج يعنى أنّ كسر الزجاج أهمُّ عندنا من (فاعل) الكسر (الحجرِ). وفى مثل هذه الحالة.. نجعل الجملة مبنية للمجهول غالبا، فنقول: كُسِرَ الزجاجُ.

– يتبين من هذا أن المرحلة الأولى – كما رآها السَّكاكينى – ليست إلا «وهْما» توهّمه السَّكاكينيّ وهو جالس وراء مكتبه، لأنّ اللُّغات، ولا سيما العربيّة ليست من البساطة بحيثُ يتوهّمُ متوهِّمُ أنّها تأتى على مراحلَ مُنفصلٍ بعضُها عن بعض، بل إنّ اللُّغات من «التعقيد» بحيثُ تتداخلُ فيها المراحلُ كتداخل طبيعة الإنسان «المعقّدة» المكوّنة من فكر وعاطفة وأحاسيس.. كُلُّها مُتمازجة مُتعاونة يعضُد بعضُها بعضا.

– أمّا المرحلة الثانية كما رآها السَّكاكينى التى تقوم على «الترتيب».. فهى مرحلة توهَّمها الكاتبُ كما تَوَهُّمَ المرحلةِ الأُولى. إنّ هذا الترتيب الملزَمَ لا يَصِحُّ إلاّ فى الأسماء التى لا تظهر عليها الحركات، مثلِ المثال السابق: «هَجَرَ موسى عيسى» فالهاجر هو موسى

(وهو الفاعل) والمهجور هو عيسى (وهو المفعول نحويًا). وإنّه لمن السَّذاجة المُتناهية أن يتصوّر أحد أنّ اللّغة فى حِقبةٍ معيّنة لم تكنْ تتعامل إلاّ مع الأسماء المقصورة، وما شابهها مما لا تظهر عليه الحركات. اللّغةُ أوسع من ذلك وأكثر تعقيدا من ذلك مِئات المرّات. لو كانت اللّغات «تُصنع» بهذه الصورة.. لكانت بسيطة جدا، غير معقّدة التكوين، ولكان المتكلمون بها لا يُعَدُّونَ إلاّ بالعشرات، بحيث يستطيعون أنْ يتفقوا على نهج موحَّد فى التعامل معها! ثم.. هل كانت العقليّة نامية عند البدو المتناثرين فى الصحراء بحيثُ يرسمون «خُططا» ثم ينفِّذونها؟ وأين كانوا يجتمعون ليتحاوروا ثم يتّفقوا؟

– إنَّ الترتيب فى الأسماء المقصورة وما شابهها لا يزال مَرْعِيًا، ولن يتغير فى المُستقبل، لأنك لا تستطيع أن تميّز بين الفاعل والمفعول إلاّ بهذه الطريقة، وبطريقة أخرى لم يَتَنَبَهْ لها السَّكاكيّ، وهى أنه يمكننا أن نقول: «موسى هجر عيسى» لكى نميّز بين الفاعل والمفعول. وهل يُظَنُّ أنَّ العرب جهلوا هذا النوع من الترتيب؟ إنه ترتيب أقرب إلى الوضوح اللغويّ من الترتيب الأوّل. واللّغةُ تنشد الوضوح فى كلّ استعمالاتها. أما ترانا نقول من أجل الوضوح: عَيْنٌ وجمعها عيون، وعينا وجمعها أعيانٌ. لنميّز بين العين المبصرة، والعين التى تدلّ على الذوات؟ فنقول عِيونٌ، للعيون المبصرة، ونقول: أعيانٌ، للذوات أو أعلام البلد. أمّا عيون الماء، فهى من قبيل المجاز، لأنَّ هناك تشابها بين العيون الآدمية وعيونِ الماء، والتشابه يسمح للغة بأنْ تستعمل كلمةً واحدة للمشبّه والمُشبه به. أما ترانا نقول: «زيدٌ بحرٌ» فنكاد نساوى بذلك بين زيد وبين البحر. أما قال حافظ إبراهيم: «أنا البحر فى أحشائه الدّر كامن؟» يقصد اللّغة العربيّة.

ومهما يكن.. فإنّ الاضطرار إلى التّرتيب على صورة «هجر موسى عيسى» فإنّما يدُلُّ على أهميّة «الحركات» فى اللّغة. لأننا بواسطة الحركات نستطيع أن نُقدِّم وأنْ نُؤخِّر فى الكلمات التى تظهر عليها الحركات، تَبَعا للمعنى المراد. مثلا.. الله تعالى قال ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]. فقد جاء إبراهيمُ (وهو فاعل) بعد الفعل مباشرةً. أمّا إسماعيل (وهو فاعل) فقد جاء بعد تمام الجملة. ولكنَّ القارئَ يدرك أنّ كلاً من إبراهيم وإسماعيل فاعل لأنه مرفوع. ولكنَّ تأخُّر إسماعيلَ لم يأتِ جُزافا، وإنما للدلالة على انحناءات المعنى. فإبراهيمُ هو الرجل المكتمل الذى كان يبنى، أمّا إسماعيلُ فكان صبيًا..يناوله صغار الحجارة والطين. ولذلك.. فهما

لا يستويان فى العمل، ولذلك.. فمن الحقّ أنْ يُميَّزَ بينهما فى التعبير.. فيأتى الشخص الرئيسيُّ فى عمليّة البناء بعد الفِعل مُباشرةً، ويُؤَخَّرُ الشخصُ الثانوى فى عملية البناء حتى تكتمل الجملة. ولولا حركات الإعراب لكان حقّ التعبير أنْ يُقال: (وإذْ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، عِلْما أنّ إبراهيمَ كان الشخص الرئيسيَّ فى عمليّة البناء، وأنّ إسماعيلَ كان الشخص الثانوىَ!) وبهذا.. يكون التعبير الثانى ضِعف التعبير الأوّل. ومن المُقرّر أنّ البلاغة فى الإيجاز.. عندما يستوى التعبير الموجز والطويل فى أداء المعنى.

– وهذا.. (إلى جانب أشياءَ أخرى كثيرةٍ) يُشير إلى تفوُّقِ اللّغة العربيّة؛ لغةِ القرآنِ، على اللُّغات الأُخرى، ومنها الإنجليزيّة التى يعرف شيئا منها نصفُ الأردنيين.

فى العربيّة، مثلا، قال المُتنبى:

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطّوى ولا تُتّقى حتى تكونَ ضواريا

(والطوى: الجوع. والضوارى: الوحوش المُولَعةُ بأكل اللّحم). (والأُسْدَ) هنا منصوبةٌ لأنها مفعول به، وهى مقدّمة على الفاعل: الحياءُ، وهو مرفوع. وقد وَضّحنا سبب التقديم والتّأخير فى كلام سابق.

– ونضيف إليه أنّ الإنسان يرتاح ويُنفِّس عن مكبوتاتِهِ المؤْلمةِ عندنا يُؤَنِّبُ نفْسه تأنيبا مباشرا أو غير مُباشر؛ عن طريق الواعى أو اللاّواعى. أما يقول الكفّار عندما يسألهم أصحاب الجنّة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: ٤٢] فأجابوهم مؤنّبين أنفسهم: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٣ – ٤٧]. أرأيت إلى هذه السلسلة من الاتّهامات التى اتهموا بها أنفسهم، وهى تعبِّر عمّا يجدونه فى أعماقهم، وعمّا مارسوه عمليّا، لأنّ الإفضاء بالأخطاء يُدخِلُ على النفس شيئا من الراحة. إنه لونٌ من ألوانِ «التطهير» الذى تحدث عنه – أرسطو الفيلسوف اليونانيّ – فى كتابة «فَنُّ الشعرِ».

– وبعدُ: فلو كانَ الإعرابِ دليلا على تطوُّرِ الحضارة وتعقُّد اللّغة المُعبِّرة عنها «فَحَسْبُ، لما فقدتِ اللّغةُ الجرمانيّةُ الإعرابَ مع الأيام، والحضارةُ تتقدمُ ولا تتراجع أو: على الأقل: تبقى حيثُ هى. بل لكانت اللُّغات التى تُعبِّر عن حضارة اليوم المعقّدة الشديدة التّعْقيد (وعلى رأسها الإنجليزيّة) – كُلها.. مُعربةً. وهذا لم يكن، ولن يكون فى هذه اللُّغات.

إنَّ الإعراب إحدى خصائص اللّغة العربيّة الرئيسيّة كالاشتقاق.. لكىْ تتمكّن اللّغةُ العربيّةُ

من التَّعبير عن أدقّ المعانى العقليّةِ والوجدانيّةِ. ولكيْ تكونَ لُغةَ القرآن المعجز، ولا يَصِحُّ أنْ يُنَزَّل المعجزُ بلغةٍ غير مُعجزة.. لأنّ جانبا مُهمّا من إعجاز القرآن هو الإعجازُ اللّغوىُّ.

– إنّ اللّغــة العربيّــة وُلِدَت مُعرَبَــةً، ألهمها اللهُ تعالى العربَ إلهامــا لتكون لغة القرآن الخالد. كما فصّلنا فى (التمهيد).

لقــد اصطفى اللهُ تعــالى العربَ ليكونوا الحَمَلةَ الأوائل للقرآن. واصطفى ســيدنا محمدا من بينهم ليكون الرســول المصطفى الذى ينزل عليه القرآنُ، واصطفى اللّغةَ العربيّةَ من بين اللُّغات لتكونَ الوعاءَ الذّهبيَّ الذى يُقَدِّمُ القرآن للناس كافّةً، طَبَقٌ من ذَهَبٍ.. عليه أشــهى طعام للعقول والأجسام.

إنَّ تصوّر السَّــكاكينيّ – بعد كل ما تقدّم – هو تصورٌ ســاذجٌ لتطــوُّر اللّغة العربيّة. لا يدعمُهُ لا واقعٌ كان فى الجزيرةِ العربيّةِ، ولا منطِقٌ ســديدٌ يغوصُ فى أســباب تطَوُّر جميع اللُّغاتِ الحيّةِ والميِّتةِ منها، على السّواء. فاللُّغات أكثرُ تعقيدا، فى نُشوئها، وفى تطوّرها، من هذا التسطيح فى الفهم الذى لا يرضاه كلُّ عقل، لتلقُّف المعرفة بهم نَهِمٌ جَلْدٌ.

الموضوع الثانى

نظريةُ اللّغةِ بين عبدِ القاهرِ الجُرجانىّ وَتُشومسكى[1]

قراءةٌ لكتابِ (فى نحوِ اللُغة وتراكيبها) للدكتور خليلِ عمايرة

قــرأتُ كتاب الدكتــور خليل عمايرة (فى نحــوِ اللغة وتراكيبهــا). والكتاب ذو فائدة لمــا فيه من نظــرات جديدة. ولكنّ لى عليــه بضعَ ملاحظات ســأؤجلها إلى مقالة أخرى، وســأكتفى – هنا – بالمُقارنة بين نظريّة الإمام عبد القاهر الجُرجانىّ الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى – الثانىَ عَشَــرَ الميلادى – ونظرية الدّكتور نحّوم تِشومســكى الذى ولد فى القرن العشــرين.. عام – ١٩٢٨م – ســأكتفى بالمُقارنة بينهما لأهمية النَّظريَّتين، ولأن عبد القاهر الجُرجانىّ كان أدقّ فَهْما لتكوُّن اللّغة، كما أرى.

– فى الطبعة الأخيرة المُنقَّحة لنظريّة تِشومسكى يعرض الدّكتور العمايرة أهم النِّقاط فيها علــى النّحو التالى: «وقد ترتب على هاتين الفرضيّتين (الفطريّة والشــموليّة) فرضيّة أخرى تبرز فى المصطلحين التاليين: الكفاية أو – الظاصح (الكفاءة أو القُدْرة) (Competence)، والأداء – أو الإنجــاز كمــا أرى – (Performance). فالكفاية تكون فى امتلاك (المتكلّم – السّامع)

(Ideal Speaker – Hearer) القدرة على إنتاج عدد هائل من الجُمل من عدد محدود جــدّا من الفونيمات الصوتيّة، والقدرة على الحكم بصحة الجُمل التى يســمعها من وجهة نظر نحْوية تركيبية – كما ذكرنا قبل قليل – ثم.. القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة وتجميعهــا فى مورفيمات تنتظم فى جمــل، والقدرة على ربطها بمعنى لغوىّ مُحدد. ذلك كله يتم بعمليات ذهنيّة داخليّة يتم التنسيق بينها بما يُسمىّ «إنتاج اللّغة»..

– «وهذه القواعد والقوانين وتلك القدرة كامنتان فى الذّهن، وأمّا استعمالها (أى استعمال اللّغــة) فيســمى الأداء. فالأداء هو الــكلام أو هى الجمل المُنتجة التى تبــدو فى فونيمات ومورفيمات تنتظم فى تراكيبَ جُمليةٍ خاضعة للقواعد والقوانين اللّغويّة الكامنة والمســؤولة عــن تنظيم هــذه الفونيمات والمورفيمات فى تراكيبها. فهــو (الأداء) الوجه الظاهر المنطوق

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٣م.

للمعرفة الضمنيّة باللّغة. ولكن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تامّ، فيكون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مقاميّة سياقيّة، أو ذهنية نفسية اجتماعية.. إلخ.

وقد ارتبط بهاتين الفرضيّتين فرضيتان أخريان فى نظرية تِشومسكى هما: البنية العميقة (Deep structure) والبُنية السّطحية (Surface Structure). أمّا البُنية العميقة فهى الأساس الذّهنى المجرّد لمعنى معين يوجد فى الذهن ويرتبط بتركيب جُمْليّ أصولى يكون هذا التركيب رمزا لذلك المعنى وتجسيدا له، وهى النّواة التى لا بدّ منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدّلالى، وإنّ لم تكن ظاهرة فيها..

«وبصرف النّظر عن الكيفية التى تأتى عليها البِنْيَةُ السطحية هذه فقد تكون، كما ذكرنا قبل قليل، وقد ينطق بها المتكلم مقدّما جزءا من الجملة النواة على الآخر.. وهذا كله لا يقدم ولا يؤخر فى المعنى الذى فى ذهن المتكلم أو فى الكشف عنه»[1] ص٥٦ – ٥٩.

١ – أقول: إن معنى قول تِشو: إن اللّغة فطرية.. هو أنّ الإنسان يستطيع أن يُنتج اللّغة ولا يستطيع ذلك سائر الحيوانات[2].. وتوضيح ذلك أن فى الدّماغ خلايا خُلقت «مُستعدة» لاستقبال اللّغة وهذا أمر بديهي[3]؛ فالإنسان لا يُحَصِّل شيئا من العلم، سواءٌ أكان فى مجال العلوم أو الآداب أو المعارف الإنسانية، إلاّ إذا كان لديه استعداد فِطرى لذلك، أيْ: لديه خلايا فى الدّماغ تستطيع بالتعاون مع عُضوية الجسم، ومع الوجدان خاصةً (أيْ: العواطف والمشاعر والأحاسيس) أن تستقبل شتّى المَعارف والعُلوم. ولذلك.. لأنّ الإنسان لم يُخلق لديه استعداد فطرى للطيران – دون واسطة – لا يستطيع أن يطير على ارتفاع عشرين مترا، ولو ظلّ يتدرب طول حياته، بينما تستطيع ذلك الطيور، لأنها خُلقت وفى جسمها استعداد للطيران، فتأخذ تطير بعد الولادة بأسبوع أو بشهر، يبدأ طيرانا ضعيفا ثم يشتدّ.

إذن – تِشو – بهذا – لم يأتِ بشيء جديد غير معروف لكل العقلاء، أو على الأقل – لكل المُثقفين العُقلاء.

---

(١) خليل أحمد عمايرة: فى نحو اللّغة وتراكيبها – منهج وتطبيق – ٥٥ – ٥٩ – عالم المعرفة/ جُدّة – ١٩٨٤م.

(٢) لا يستطيع ذلك سائر الحيوانات.. فهذا أمر بديهى وما تتعلمه بعض الطيور كالببغاء، وبعض القردة كالشمبانزى لا يعد لغة، لافتقاره إلى الكثرة والتماسك والتنويع .

(٣) بديهى: مثلها سليقى وطبيعى وغريزى – كلها سمعت من العرب–، والسماع مقدم على القياس، لأن أصل القياس سماع. ولأن قواعد القياس وُضِعت ليقاس عليها ما يشتقه المولّدون – بعد عصر الاحتجاج – حتى تقوم الساعة – أمّا ما صدر عن العرب الفُصحاء فلا ينقاس، وإن كان ... نادرا – بل يَصِحُّ أن يُقاس عليه، عند الحاجة.

– وإن معنى قوله: إنّ اللّغة شمولية.. هو أنّ هذه الخلايا التى فى الدّماغ فيها قدرة على تنظيم اللّغة فى قواعد وقوانين محدودة تمكّن الإنسان من صوغ الجمل بلا حدود، ومن معرفة الصّائب منها من الخطأ، سواءٌ أكان هو المنتج لها أو كان غيره هو المنتج لها.

– وأقول: هذا أمر سَبق به ابن خلدون تشو قبل ستة قرون؛ فابن خلدون يرى أن تَكَوُّنَ الملكة اللّغوية (أو القدرة اللّغوية) إنما يَحْصُلُ من خلال سماع القول الفصيح وقراءته والدُّرْبَةِ على استعماله. أيْ: أن الإنسان يقوم بعمليّتين مُترافقتين مُتعاقبتين: يتلقى اللّغة شيئا. فشيئا ويمارسها شيئا، فشيئا[1]. وأقول: إن هذا الكلام يعنى أن الدماغ قابل لاستقبال اللّغة، وقابل لإنتاجها فى لحظات مُتعاقبة، بعضُها لاستقبال اللغة وبعضُها لإنتاج اللّغة.

– وأقول: إن القرآن الكريم سبق المُفكّرَيْن: ابن خلدون وتشو، فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. فالرّبط بين العِلْم (لا تعلمون) وبين السمع والأبصار والأفئدة.. هو دلالة على أن هذه الأشياء الثلاثة هى آلات لتحصيل العلم، إذْ لم يكن الإنسان ذا علم عند خروجه من بطن أمه، ولكن الله جعل فى جِسمه هذه الآلات الثلاث لتكون آلاتٍ لتحصيل العلم. والفؤاد – من هذه الآلات الثلاث – هو القلب، قال أبو ذئيب[2] الهُذلى يصف امرأة جميلة:

رآها الفؤادُ فاستضلّ ضَلالُهُ نِيافا من البيضِ الحِسانِ العطائل[3]

والقلب هو العقل، أو إن العقل والقلب بينهما اشتراك. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يدفع الوعى إلى العقل. والحق أن العقل لا يُفكّر إلا إذا حفزه حافز من القلب (أو الوجدان). أما ترى أن المرء لا يقوم بعمل جسمى أو فكرى إلا إذا وجد عنده – الرّغبة – فى ذلك. ولن تكون رغبة بغير حفز من القلب (الوجدان) الذى يحرك العواطف والمشاعر والأحاسيس.

وقد وَضّحَ رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قول القرآن السابق بقوله: «ألا إنّ

---

(١) انظر: ابن خلدون عبد الرحمن ابن محمد (٨٠٨ هـ) – المقدمة – ١٢٣٤هـ/ القاهرة ١٩٦٢م – تحقيق: على عبد الواحد.

(٢) أبو ذُئيب: يكتب أيضا: أبو ذُؤيب. فى الصورة الأولى غلب الكسر عن طريق الياء وفى الثانية غلب الضمّ، وكلاهما صحيح.

(٣) معجم لسان العرب – مادة (فأذ).

فى الجسدِ مُضغةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهى القلب»[1] ذلك لأنّ القلب هو الذى يُحرّك العقل للعمل والتّفكير.

– ننتهى من هذا أن الفؤاد هو القلب، وأن القلب بينه وبين العقل ارتباط شديد. وهذا.. يؤدى إلى أن نقول: آلات الجسم تُوصل ما تُحَصِّله من لغة ومعارف إلى العقل، ثم يستقرّ كلّ نوع منها – لغةً أو معارف – فى الخلايا التى تخصّه فى الدِّماغ. وكلّ نوع من هذه الخلايا يقوم بثلاثة أعمال: الأول – استيعاب المادة التى تصل إليه. والثانى – تكيّف الخلايا مع هذه المادة لتصبح مُقولَبَةً بالقوالب التى تنتج نوع المعرفة المخصوصة. والثالث– إنتاج المعرفة المخصوصة، وإنتاج وحداتٍ إبداعية فى مجالها. مثلا.. قوالب اللّغة تستوعب ما يأتيها من ألفاظ وتعابير وتراكيب، ثم تتقولب بالقوالب التى تطرحها هذه اللّغة، ثم تُصبح هذه القوالب قادرة على إفراز كثير مما وصلها من اللّغة، وعلى إنتاج ما لا يُحصى من الألفاظ (المُشتقّة غالبا) ومن التّعابير التى تأتى على هُدى القواعد التى استقرت فى (الخلايا – القوالب).

٢ – ويقول الدكتور العمايرة: «فليس الأمر – فيما يرى تِشومسكى – اكتسابا، كما يراه السُّلوكيون، يَتِمُّ بالتّقليد والمُحاكاة والتّخزين فى الذِّهن الذى يولَدُ صفحة بيضاء».

– أقول: إن نظرية تِشو لا تقول إلا أقل من نصف الحقيقة، وإنّ نظريّة السلوكيّين تقول نِصف الحقيقة الآخر. أعنى أن اللّغة لا تُكتسب إلا بواسطة شيئين: الأول – وجود خلايا فى الدِّماغ مُستعدة لاستقبال اللّغة. والثانى – وجود لغة تحلّ فى هذه الخلايا عن طريق الاكتساب. وبهذا يكون رأى ابن خلدون أقرب إلى الصحة من الرأيين السّابقين، لأنه جمع بين الاكتساب والاستعداد للاكتساب، تقوم بهما خلايا فى الدماغ.

٣ – وأقول: إن الكفاية والأداء.. القدرتين اللّتين وردتا فى النّص الذى نقلناه من شرح الدكتور العمايرة لنظريّة الدكتور تِشوم لا تختلفان كثيرا عن الفطرية والشمولية اللتين تحدثنا عنهما سابقا. فالكفاية تعنى تخزين اللّغة، مفرداتٍ وتعابير، وخلال ذلك تتكون فى خلايا اللّغة فى الدِّماغ القواعد والقوانين التى تسير عليها اللّغة، التى تؤدى إلى أن تكون هذه الخلايا قادرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل – عن طريق هذه القواعد – من عدد محدود من الجمل أو القوالب، ولكنها تظل فى حالة كُمون حتى يثيرها مثير خارجى أو داخلى، فتبرز منها – عمليا – الجُمل التى تناسب هذا المثير. وهذا.. هو الأداء. هو القُدرة على الإنتاج الفِعلى للجُمل المرتبطة بالمثير والتى تعبر عن معنىً.

(١) البخارى: محمد ابن إسماعيل (١٧٥)– الصحيح– ١/٢٠.

– ومثل هذا.. قاله الإمام عبد القاهر الجرجانيّ فى كتابه (دلائل الإعجاز)، منذ القرن الخامس الهجرى – الثانيَ عَشَـرَ الميلاديّ – قـال: «وإذا كان لا يكون فى الكَلِم نظمٌ ولا ترتيـب إلا بأن يُصنَع بها هـذا الصنيعُ ونحوُهُ، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللّفظ شـىء، ومما لا يُتَصوَّر أن يكون فيه ومن صفته.بَان لك أنْ الأمر على ما قلناه من أن اللّفظ تَبَعٌ للمعنى فى النظم، وأن الكَلِمَ يترتب فى النطق حسب تَرَتُّبِ معانيه فى النّفس، وأنها لـو خلـت من معانيها حتى تتجرّد أصواتا وأصداءَ حـروفٍ.. لما وقع فى ضمير ولا هَجَسَ فـى خاطـر أنه يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعَلَ لها أمكنة ومنازل، وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»[1].

– أقـول: قولـه: أن اللّفظ تبع للمعنى فى النُّظم، وأن الكلم يترتّب فى النُّطق حسـب ترتّب معانيه فى النفس. يعنى شـيئين: الأول – أن المرء لا يسـتقبل ألفاظا دون معانٍ، وغالبا ما تأتى الألفاظ فى تعابير تقوم على معانٍ مركبة. وثانيا – أنه ينطق الألفاظ – غالبا – فى تعابير تترتب فى النطق والكتابة حسـب ترتيـب معانيها فى النفس (أيْ: العقل). وهذا.. يعنى أن مسـتقرّ المعانى هو النفس (العقل)، ولن تسـتقر المعانى فى العقل لولا أن لها خلايا معينة فيه قادرة على الاستقبال، ولن تكون قادرة على الاستقبال لولا أن تكوّنت فيها مسارب (قوالِب) للمعانى وللألفاظ، كمُفردات وتعابير تقوم على أساس هيئات تراكيب تكوّنت فى هذه الخلايا. وهذه المسـارب وهذه التراكيب قادرة على التّعبير بالألفاظ حسب ترتيب المعانى فيها. ولّما كانت المعانى غيرَ مُتناهية فهذا يعنى أنّ هذه المسـارب وهيئات التركيب قادرة على توليد ما لا يحصى من المعانى، وإلاّ.. لما استطاع متكلم أن يأتى بجديد فى المعنى الذى يسـتتبع ألفاظا جديدة أحيانـا، أو ترتيب ألفاظ قديمة ترتيبا جديدا، أو جمعا بين بعض الألفاظ الجديدة والقديمة مع ترتيب جديد لها.

– إذن – عبد القاهر الجرجانيّ – سابق لتشوم بقرون فى معرفة هذه النظرية اللغوية. ونُضيـف هنـا أن المعانيَ – البسـيطة منها والمركبة – لا تسـبق الألفـاظ، وإنما تتولدان وتتشكلان فى وقت واحد معا، تقريبا.

وهنا.. يحسن أن نُلاحظ أن عبد القاهر الجرجانيّ قال بأنّ الألفاظ تترتب حَسَبَ ترتب المعانـى فى (النّفس) ولم يَقُلْ: فى العقل. لأنّ العقل لا يتحرّك، كما قلنا فى الرقم الأول، إلا إذا حركته النفس.

---

(١) عبـد القاهر ابن عبد الرحمـن الجرجانى (٤٧١هـ): دلائل الإعجاز – ٥٥، ٥٦ – مكتبة الخانجى / القاهرة – ١٣٧٥هـ / ١٩٥٢م.

– ولهذا.. فاستنفار العبارات فى خلايا من الدِّماغ لا يكون إلا إذا حركت الدِّماغ النَّفسُ (الوجدان). ولهذا.. يختلف ترتيب المعانى فى العقل، وترتيب الألفاظ تبعا لذلك – فى مجال العلم أو الفكر عن ترتيبهما فى مجال الأدب. لأنّ النفس تكون مُستقرة إلى حدّ كبير عند التفكير العِلمى والفلسفى والنّقد – على تفاوت فى استقرارها – إنها تتحرك بنسبة عَشْرِ درجات فى المئة إلى عشرين وبذلك.. يكون حفزها للعقل محدودا، مما يُبقى الألفاظ المستنفرة على ترتيب بسيط. مثلا.. يأتى الفعل ثم الفاعل ثم يأتى المفعول. وهكذا.. تخرج إلى الوجود.

– أمّا فى مجال الأدب فإن حركتها تكون عنيفة، على تفاوت بين الأديب عند إنشاء الرِّواية.. عنها عند إنشاء القصة.. عنها عند إنشاء الشعر. تكون حركتها قويّة جدا فى الشعر العظيم، بحيث تبلغ ستين درجة بالمئة أو أزيد. وتهبط إلى خمسين بالمئة أو أقل فى القصة، ولكنها تهبط إلى ثلاثين بالمئة فى الرواية. وبهذا.. يكون حظّ العاطفة أكثر من ضِعْف حظّ العقل فى الشعر. ثم يزداد حظ العقل قليلا فى القصة، ثم يربو على حظ العاطفة فى الرواية[1].

– على هذا.. يكون التّعبير فى الشِّعر العظيم أكثر تعقيدا وتغييرا لترتيب الألفاظ الطبيعى فى التعبير من ترتيبها فى القصة. وفى القصة أكثر منه فى الرواية. وطبعا يكون فى الرواية أكثر منه فى العلم أمّا الفكر، فلسَفةً ونقدا فيأتى بين الأدب والعلم. بل إن جَيَشانَ العاطفة فى الشعر يضع أما العقل صورا – تشبيهاتٍ ومجازاتٍ – لا يضع أمام العقل مثلها فى العلم، إذْ يكاد العلم يكون خاليا من الصور.. من التشبيهات، وخاصة من الاستعارات.

ولنمثِّل على لُغة الشِّعر ببيتين: أحدهما للدلالة على تعقيد التركيب فى الشعر، والآخر للدلالة على اهتمام الشِّعر بالصور: يقول الأخطل الأموى فى وصف النساء الجميلات على الظعائن:

حَثّوا المطِيَّ فَوَلّتْنا ركابُهُمُ وفى الخُدور، إذا باغَمْتَها، الصُّوَرُ[2]

---

(١) انظر: تفصيل ذلك فى كتابى (منابع الشعر ومكانه الشاعر – ١٥–٢١).

(٢) (معجم – لسان العرب).

المطيّ: النوق. الخدور: مثل الخيمة الصغيرة، تركب على ظهر الناقة، لكى تدخل بداخلها المرأة المُنعَمة. الصور: الجميلات من النساء، وكأنهنَّ الرسوم.

باغم: كلمها، فجاء كلامها ناعما رقيقا كأنهُ بُغام الظباء.

فى الشطرة الثانية.. الترتيب البسيط هو: «الصُّوَرُ فى الخدورِ إذا باغمتها». ولكنك ترى بهذا التّرتيب الذى قدمّناه به– المبتدأ وهو: (الصور) ثم جاء بالمتعلق بالخبر (فى الخدور) ثم بالشرط (إذا باغمتها) – ترى أن جمال الشطرة ضاع، وأن إحكام التركيب تفكك، وأن الكلام أصبح نثرا رديئا. ولكن فى حالة ترتيب الشاعر للشطرة.. جاء الكلام مُحكما؛ فقد قدم متعلق الخبر (وفى الخدور) لأهميته، لأن النساء مُسافرات، والشّاعر يريد أن يسبق إلى ذِهن المتلقى إلى أن هؤلاء النِّسوة مُنعّمات، لا يمشين على أرجلهن، وإنما هن على الظعائن وفى الخدور أيضا، أيْ: لكل منهن خِدرٌ على ظهر الناقة يقيها الحرّ والبرد ونظرات المُتطفّلين، فهن منعّمات مصونات. ثم.. قدم الشرط (إذا باغمتها) قبل المبدأ (الصور) ليشعرك أنهن لسنَ سوقيّات يُثرثرن مع الغادى والرّائح، وإنما هُنّ مُتعزّزات لا يكلّمهن إلا من يهفو إلى كلامهنّ ومن دلائل أنهن مُنعّمات أنهنّ لا يُصوّتن من حلوق خَشنة. وإنما هُنّ يُساقطن الكلام كالبُغام (والبغام صوت الظّبية) فهو يخرج من اللِّسان والشّفاه لا من الحلق.

– وأظنك الآن أدركت من الكلام السابق: لماذا أَخَّر المبتدأ (الصوَر) فلا بدّ من الاحتراس قبله بأن هؤلاء النِّسوة الجميلات فى الخدور، ثم.. إنّ – البُغام – لا يُناسبه إلا الصُّوَرُ من النساء أيْ: الجميلات، لأنّ المُصوِّر (الرّسام) غالبا ما يُجَوِّدُ الصورة حتى تكون أقرب إلى المثال: فالصوت الرّقيق الرّخيم لا يصدر إلا من المرأة المنعّمة الحسناء.

– ويقول الفرزدق عن غَزْوِ الشّيب الشبابَ، مُهتما بالصُّورِ:

والشَّيبُ ينهضُ فى الشبابِ كأنهُ ... ليلٌ يصيحُ بجانبَيْهِ نهارُ

فالشيب أصبح فى نفس الشاعر من الأحياء ينهض ليطرد الشباب (ممثلا بالشَّعَرِ الأسود) ثم.. شبهه بصورة الليل يقتحم حِماهُ النهارُ. ثم شَخّصَ النّهار والليل؛ فالليل كقطيع الأغنام الأسود، والنّهار كالرّاعى يصيح بجانبى قطيعه، لكى ينطلق فى الصّباح إلى المرعى.

– ولن تجد مثل هذا البيت والذى قبله فى نصّ عِلمى أو فِكرى.

٤ – أما البنية العميقة والبنية السطحية فى نظرية تشوم، كما اصطلح على تسميتها الدكتور العمايرة.. فإنى لا أرى أن هذين الاصطلاحين دقيقان. وأدقّ منهما أن نقول:

البنية الخفيــة والبنية الظاهرة. لأن تســميتها بالبنية العميقة والبنية الســطحية يعنى أن البنية الأولى ذات تركيب وعمق، وأما الثانية فهى بســيطة ســاذجة، مع أن البنية الثانية هى صورة ظاهرية عملية للبنية الداخلية المجردة.. غالبا.. ولهذا.. فالتسمية التى اقترحتُها هى أقرب إلى الصحة، فليس الفرق بينهما – غالبا – أن الأولى أجود من الثانية، بل الفرق بينهما فرق مكان؛ فالأولى كامنة فى موضعها من الدماغ، والأخرى صيغة عملية منطوقة أو مكتوبة. ولهذا.. فلا مندوحة من أن نترجم (Deep) بالداخل و(Surface) بالظاهر.

– ثم.. فمن حيثُ المعنى فلا جديد يطرحه هذان الاصطلاحان، إذ هما يعيدان ما قيل سابقا فى الرقم الأول. وهو أن البِنية الداخلية كما سميتها هى الخلايا التى تستقبل اللّغة، ثم يؤدى ورود اللّغة إليها شيئا فشيئا إلى تخزينها وإلى نمو القوالب (القواعد والقوانين) فى هذه الخلايا شيئا فشيئا – هذه القوالب التى يُقاس بها صِحة اللّفظ من خطئه، ويُقاس بها صحة التعبير من خطئة كذلك.

– أما البُنية الظاهرة.. فهى التَّجســيد العملى – المنطوق والمكتوب – لما استقر فى هذه القوالب. وقد يكون مجرّد اســترجاع لما استقرّ فى تلك القوالب، وقد يكون «إبداعا» يجرى على بِنية هذه القوالب، ولكن بتشكيل جديد مُبدع للمعانى والألفاظ، لأن هذه القوالب مرنة بحيث تسمح بالتدفق الجديد أو الفيض الإبداعى.. معنىً وصورا وتعابير.

٥ – وقولُهُ: «فهو (الأداء) الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية الكامنة باللّغة. ولكن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تامّ، فيكون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مَقاميّة سياقيّة، أو ذهنيّة نفسيّة اجتماعيّة.. الخ».

– أقول: هذا الأمر تحدَّث عنه الجرجانيّ بقوله: «.. فلستَ بواجد شيئا يرجع صوابه – إن كان صوابا – وخطؤُه – إن كان خطأ – إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاســم، إلا وهــو معنى من معانى النحو قد أُصيــب به موضعه ووضع فى حقه. أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له. فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه إلا.. وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلــك المزيّة وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[1].

(١) المرجع نفسه – ٨٢، ٨٣.

– أقول: إن اعتبار الجرجانيّ النظم – صحةً وفسادا – راجعا إلى معانى النحو، أى: راجعا إلى القالب الذى تشكل فى خلايا الدماغ التى تخصّ اللّغة، يماثل هذا الذى سمّاه تشوم الكفاية، لأن معانى النحو راسخة فى الخلايا المذكورة سابقا.

– وصحة النُّظم وفسادة ترجعان إلى معانى النحو أيْ: أن صحة النظم وفساده إنما هى الصورة القولية الظّاهرة، أيْ: هى الأداء، كما عبّر عنه تشوم، (الاختلاف فى التعبير وليس فى المعنى المركزى)، ومعانى النحو هى الكفاية، كما أسلفنا. والجرجانيّ، ليؤكد نظرته، يضرب مثلا على صحة النظم، وآخر على فساده. ومن أمثلته على صحة النظم التى تعنى اتفاق التعبير مع معانى النحو، أى: اتفاق البنية الخارجية مع البنية الداخلية – قول البُحترى:

«..بلوْنا ضرائبَ من قد نرى ... فما إنْ وجدْنا لفتح ضَرينا
هو المرءُ أبدتْ لهُ الحادثا ... تُ عزْما وشيكا ورأياً صَليبا
تَنَقَّلَ فى خُلُقيْ سُؤْدَدٍ ... سَماحا مُرَجّىً وبأسا مَهيبا
فكالسيفِ إنْ جئتَهُ صارخا ... وكالبحرِ إنْ جئتَهُ مُستثيبا»

– ثم.. يوضّح جوانب الجمال فى الأبيات فيقول: «أفلا ترى أنْ أول شيء يروقك منها قوله: (هو المرء أبدت له الحادثات) ثم قوله: (تنقل فى خلقيْ سُؤدد) بتنكير السؤدَد، وإضافة الخلقيْن إليه. ثم قوله: (فكالسيف)، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى.. لا محالةَ: فهو كالسيف، ثم.. تكريره الكاف فى قوله: (وكالبحر). ثم.. أن قَرَنَ إلى كل واحد من التشبيهين شرطا وجوابهُ فيه. ثم.. أن أخرج من كل واحد من الشرطين.. حالا على مِثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: (صارخا) هناك، و(مُستثيبا) ها هنا؟ لا ترى حسنا تنسِبه إلى النّظم ليس سبَبُهُ ما عددتُ، أو ما فى حكم ما عددتُ»[1]. أيْ: ليس سببه إلا قوالب النحو الرّاسخة فى الدّماغ.

– ومن أمثلته على فساد النظم أيْ: انحراف القول الظاهرى عن البنية الداخلية، أى: انحراف الأداء عن الكفاية (الفرق فرق اصطلاحات وليس فرق حقائق) قال: مثال قول المتنبى:

(١) المرجع نفسه – ٨٥.

وفـاؤكـمـا كالرَّبْعِ أشجاهُ طـاسِمُهْ   بأن تُسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

ومع أنه لم يحللِ البيتَ لكنه ضربه مثلا على فساد النظم. ونظم البيت دون انحراف (وفاؤكما بأن تسعدانى – أيها الصديقان – وتهتما بأمرى كالربْع كلما كان أكثر عفاءا كان أكثر جلبا للحزن، كما أن الدمع يشفى من الحزن إذا كَثُرَ انهماَله).

٦ – وقول تشو الأخير الذى أورده الدكتور العمايرة بأنه قد ينطق بالبنية السطحية المتكلم.. مقدّما جزءا من الجملة النواة على الآخر.. وهذا/ كُلُّهُ لا يُقَدِّم ولا يؤخّر فى المعنى الذى فى ذهن المتكلم أو فى الكشف عنه[1].

– أقول: قد نعذر تشو بهذا القول بعضَ العذر – لا كُلَّهُ – لأن تغيير الترتيب فى الجمل فى اللّغة الإنجليزيّة قليل، فهى، على الأغلب، ذات قوالب جامدة، خِلافا للغة العربيّة ذات القوالب المرنة غالبا[2]. ولكنّ الحق أن تغيير الترتيب يؤدى إلى تغيير فى معنى التعبير (ظلال المعنى)، وإن لم يؤثر فى المعنى (المركزى) أو الغرض، كما سمّاه الجرجانيّ أو المعنى (النّواة) كما سمّاه تشوم. اقرأ ما يقوله الجرجانيّ عن هذا التغيير، يقول: «لا يكون لإحدى العِبارتين مَزِيّة على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها»[3] ونمثل على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فلو قال أحد الناس: (ولكم حياة فى القصاص) – لتغير المعنى كثيرا، لأن القرآن الكريم عندما قدّم (فى القصاص) على (حياة) إنما كان ذلك ليوجه الأنظار إلى – القِصاص – لأهميته، لأن القِصاص يُقلّل نسبة القتل العمد كثيرا، فمن ينوى القتل يتردد كثيرا قبل أن يُقْدِم، لأنه يعلم أن مصيره القتل بالقِصاص. ولا شك أن الذى يعلم أنه إذا قتل رجلا عمدا سيسجن ولن يُقتل قِصاصا فإنه يكون أجرأ على القتل عَشْرَ مرات من الذى يعلم أنه مقتول لا محالةَ إذا قَتَلَ، فإذا أضفت إلى ذلك أن المتلقى للعِبارة (فى القِصاص) يتوقع أن يكون تمام العبارة (قتلُ المقاتِلِ) ولكنه يجد كلمة تُسوِّغ قتل القاتل وهى

---

(١) فى نحو اللّغة وتراكيبها – ٥٩.

(٢) تفضيل ذلك فى كتابى السابق ذكره فى النحو [الرؤى النحوية] – ٢/٨٩–٩٩– فالجمل فى العربية نوعان: جمل نماذجية تحليلية مرنة، وجمل أنماطية وصفية ثابتة الرتبة. الأولى.. كثيرة، والثانية.. قليلة – ولكلٍّ أحكامها.

(٣) دلائل الإعجاز – ٨٧.

كلمــة (حياة) فيحسّ براحة وتعجب وعثور على كنــز لم يكن يخطر له ببال. وليس شيء من هذا يكون لو قدمت (حياة) وأُخّرت (فى القصاص). إن الفرحة المفاجئة التى لم تكن تنتظرها أو تتوقعها الآتية من عبارة القرآن تفتقدها فى عبارتنا التى غيرنا بها ترتيب عبارة القرآن. لا شــك أن المعنــى المركزى لا يتغير، ولكن ظلاله تغيرت كثيرا كما عرّفت آنفا.

– إذن – الجرجانــىّ كان أكثر وعيا من تشــوم إلى أن تغيير ترتيب ألفاظ الجملة (وهــو ما سمّاه تشــوم: التحويل) يؤدى إلى تغيير فى المعنــى، أى: فى ظلال المعنى على الأقلّ.

وأخيرا.. نُلخِّص ما سبق فى النقاط الثمانى الآتية:

١ – مُصطلح الفطرية والشــمولية.. مضمونهما بديهى، إذْ لا يمكن أن يتعلم الإنســان شيئا – لغةً أو غيرَ لغة – لولا أنه مزود باستعداد فطرى لذلك ثم.. لا يمكن أن يأتى بجديد فى الفِكر والأدب لولا أن عقله قابل لتكوين قوالب لفظية محدودة.. قادرة على إنتاج عبارات غير محدودة. وهذا.. فَهْمُ كان ابن خلدون قد سبق فى توضيحه تشوم. والقرآن الكريم سبق فى توضيح ذلك ابن خلدون وتشوم.

٢ – اللّغة اكتساب، كما يقول السلوكيون، لا يتم لولا أن فى خلايا الدّماغ ما يستقبل اللّغة ثم يتكون فيها قوالب قادرة على إنتاج اللّغة.

٣ – لا فرقَ كبيرا بين الفطرية والشــمول مــن جهة وبين الكفاية والأداء من جهة أخرى، وهذان المفهومان سبق بهما الجرجانيّ تشوم بثمانية قرون.

٤ – أدرك الجرجانىّ أن للنفس علاقةً قويةً فى استيعاب اللّغة وفى إنتاجها.. إلى جانب عمل العقل فى هذين الأمرين.

٥ – عمل النفس وحفزها للعقل للاســتيعاب ثم الإنتاج يَقْوى فى مجال الأدب، ويقلّ فى مجالْ العلم والفِكر.

٦ – مُصطلــح البنيــة الداخليــة والبنيــة الظاهــرة.. أدق مــن مصطلحيْ البنيــة العميقة والبنية السطحية.

٧ – التطابق التامْ بين الأداء والكفاية لا يكون إلا فى القرآن الكريم ويكون بنسبة عالية فى الأدب الرّفيع، ويضعف فى الأدب الردىء.

– وقد تكلم عن هذا الأمر اللغوى النّاقد الإمام الجرجانىّ.

٨ – ليس صحيحا أن تغيير ترتيب الكلام لا يؤثر على ظِلال المعنى. المعنى المركزى قد لا يتأثر، ولكن ظلال المعنى تتأثر. لقد أدرك الجرجانى هذا بوضوح، ولم يدركه تشو.

obeikandl.com

الموضوع الثالث

قراءة لكتاب (فى نحو اللغة وتراكيبها) ومناقشة آراء الكاتب عمايرة[1]

– تناولنا من هذا الكتاب (فى نحو اللّغة وتراكيبها) القسم الذى يعرض نظرية (تشومسكى) فى اللّغة.. فى مقالة سابقة، حللنا فيها هذه النظرية وبَيّنّا أن جوهر نظرية تشوم قد سبقه إليه عالمان عربيان.. الأول هو: الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت – ٤٧٧ هـ) اللغوى والناقد الشهير، والثانى هو المفكر الشهير عبد الرحمن ابن خلدون (ت – ٨٠٨ هـ) والفرق بينه وبينهما إنما هو فى التفصيلات.

– وفى هذه المقالة نتناول بعض آراء كاتب الكتاب الدكتور خليل أحمد عمايرة المبثوثة فى الكتاب كله، التى لم نوافقْه عليها، مُدعَّمين رأينا بالتحليل والتعليل والدليل:

– يقول المؤلف: الدكتور عمايرة: (ولعلّ الترتيب بين النّعت والمنعوت فى العربيّة وعدم مراعاته هو الذى يؤدى إلى وجود بعض الجمل المُلتبسة التى يعتورُها الغموض، فنقول: بقالةُ الجامعة الجديدة، مدرسة جامعة اليرموك النموذجية. فينصرف ذهن السامع إلى أن المقصود فى الأول هو البقالة، وفى الثانية هو المدرسة، وقد يذهب إلى أن المقصود فى الأولى هو البقالة، وفى الثانية هو المدرسة، وقد يذهب إلى أن المقصود بالنّعت هو الجامعة فى الأولى، وأنه جامعة اليرموك فى الثانية، أىْ: أن النعت تابع للنكرة التى أصبحت معرفة بالإضافة، أو أنه تابع للمعرفة مع إبقاء النكرة.. نكرة فى الذهن وفى المعنى الذى توحى بها الكلمة) ص – ٢١.

– أقول: **أولا** – قولُهُ: (وعدم مراعاته) جمله ناقصة، ويُفَضَّلُ: وعدم مراعاته للكلمة المنعوتة: أهى المضاف (=بقالة) أم المضاف إليه (=الجامعة).. يؤدى إلى شىء من الغموض.

وثانيا – قوله: (فينصرف الذهن..) يوهم القارئ أن عبارة: (أن المقصود فى الأولى هو البقالة).. هو الاحتمال الوحيد. مع أن الكاتب يعرض احتمالا آخر. ولذا.. فحق العبارة هو أن تكون: (فقد ينصرف الذهن..) ليدرك القارئ بدءا أن ثمة احتمالا آخر.

---

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٣م.

وثالثا: الدكتور خليل يتحدث عن العربيّة وكأنها لغة غير مشـكُولة كالإنجليزيّة التى لا شـكل فيها. ولهـذا.. يرى أن القارئ يحار بين أن يكـون النعت للمضاف أم للمضاف إليه، والحق أن القارئ لا يحار فى العربيّة، لأنها مشـكولة. فإذا أردنا أن نجعل النعت للبقالـة مرفوعا بعلامة الضمّ.. ضممنا (الجديدة)، وإذا أردنا أن نجعله للجامعة المكسـورة بعلامة الكسـر كسـرْنا (الجديدة) فيزول اللّبس زوالا تاما. إذن لا يحسن أن تقيس العربيّة على الإنجليزيّة، لأنهما لغتان مختلفتان. كلٌ منهما لها نهجها وطريقتها فى التعبير. بل يمكن أن نفرق بأن نضع شرطة (–) بعد كلمة (الجامعة) إذا كانت الصفة للبقالة – نصطلح على ذلك، ولا نضعها إذا كانت الصفة للجامعة.

– ويقول: (فقد كان الشـعراء يدركون أن هنـاك اختلافات فى اللهجات بين القبائل، وكان أحدهم إذا أراد أن ينظم شعرا للمنافسة به فى الأسواق نظمه باللّغة الأدبية المشتركة بـين القبائل، وإذا ما قال شـعرا فى قبيلته جاء به متفقـا مع لهجتهم وعاداتهم اللغوية.. فتناقلوه (أى: الشعر) إلى أن وصل إلى النُحاة الذين حكموا عليه بالشذوذ، لأنه مُخالف لما عندهم من قواعد، ولأنه كان قليلا.. ولكن النُحاة أسـقطوا كثيرا من الأشـعار التى وردتهم مخالفة فى تراكيبها أو حركات الإعراب فيها لما كانت عليه قواعدهم التى أخذت تسـتقر مأخوذة من لهجات قبائل بعينها) ص– ٣١.

– أقول: إن الشـعر للقبائل السـبع التى اختـيرت لهجاتها لِتُمثّـلَ الفُصحى– تكاد لهجاتها تخلو من الفروق الكبيرة التى تجعلها لهجات مُتباينة، بل كانت متقاربة جدا.. بينهـا فـروق طفيفة هـى التى نجدها فى المعاجـم وفى كتب النحو: مثـلا.. عندما نجد معجم لِسـان العرب يقـول: (رجل عزب ومِعزابة: لا أهل لـه. ولا يقال: رجل أعزب، وأجـازه بعضهم) فإننا نُدرك أن عزبا (لهجة قبيلة (لعلها قريش) وأن أعزب «لهجة قبيلة أخرى.(أمّا أن «ما» فى لغة بنى تميم لا تعمل شيئا، فيقول بنو تميم: «ما زيدٌ قائمٌ».. ولغة أهل الحجاز تُعلمها كعمل «ليس» لشبهها بها فى أنها لنفى الحال عند «ما زيد قائما»..) – شرح ابن عقيل: ٣٠٢/١– فهذه فروق طفيفة، لا تُباعِدُ بين اللهجتين.

وإن كان الواجـب اللغـوى يقتضى أن نضرب – صفحـا – عن إعراب لهجة بنى تميم لكى يستقيم الإعراب على وجْهٍ واحد، وإلا .. بطلت قيمته[1].

---

(١) انظـر كتابـى (الرؤية النحويـة – ٢/ ٤٧/ ٥٠) ففيه تفصيل لذلك، فحـركات الإعراب – لها معنى – وبتعددهـا علـى التركيـب الواحد أو التعبير الواحـد – يبطل هذا المعنى، فلا يجوز أن نبطـل القانون العام للإعراب.. مقابل جزئيات يمكن اطراحها.

– أمّا أن اللّغة أخذت تستقر مأخوذة من لهجات قبائل بعينها.. فهو عين الصواب. وهى سبع قبائل على رأسها قريش، (وأكثر اللّغة من لهجتها). لأن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف، كما قال رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أى: وردت «بعض» الكلمات بلهجة، ووردت أخرى بلهجة أخرى، أو ورد فى الكلمة قراءتان أو ثلاث، أى: لهجتان أو ثلاث، وهى قليلة على الإجمال، فإن قرّاءا يقرأون فى الفاتحة (ملك يوم الدين) وآخرين (مالك يوم الدين) مثلا، وقراءا يقرأون (الحمدُ لله) بضم الدال وآخرون يقرأون (الحمدِ لله) بكسر الدال، على الإتباع، أى: إتباع حركة الدال لحركة اللام فى لفظ الجلالة، وهكذا.. وهذا لا يُباعد بين اللهجات.

ولولا حصرُ جمع اللّغة فى لغة قريش وسِّت قبائل أخرى.. لأصبحت اللّغة العربيّة.. مباينة كثيرا. للغة القرآن. وبهذا.. لا تكون اللّغة خادمة للقرآن بل تضحى مباينة له. وعندئذ.. لا يكون اللغويون والنُّحاة.. قد خدموا القرآن الكريم الذى به الابتداء وبه الانتهاء، فلولا هذا لا نفصل الناس شيئا فشيئا عن القرآن لانفصال لغتهم عنه. ومن هنا.. فالمُخلصون للقرآن ينكرون على الذين يتحدّثون فى الدين باللّهجة العامية، حديثهم بها وهم قادرون على الفُصحى ولو مُسكنةً – المخلصون.. فى القديم قصروا جمع اللّغة على اللهجات التى نزل بها القرآن الكريم، فأحسنوا.. والمخلصون اليوم.. ينكرون على القادرين على الحديث بالفصحى أن يتحدثوا عن الدين بالعاميّة، والله تعالى يقول:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ « [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥] فاللّسان العربى المُبين مطلوب من العلماء، لأنهم ورثة الأنبياء. وقول الكاتب: (فتناقلوه – أيْ: أبناء اللهجة التى قيل فيها الشعر المُفارق للفُصحى – إلى أن وصل إلى النُّحاة الذين حكموا عليه بالشذوذ، لأنه مخالف لما عندهم من قواعد « – قوله هذا غير دقيق، لأنه يصور لك أن هناك مرحلتين: مرحلة.. جُمعت فيها اللّغة الفُصحى، ومرحلة تالية.. ورد على اللغويين والنَّحويين فيها الشعر المُخالف للفُصحى لارتباطه بلهجات القبائل، وهذا تصوُّر غير دقيق، لأن القبائل السبع التى أخذت الفُصحى من لهجاتها، والقبائل الكثيرة الأخرى التى لم يؤخذ من لهجاتها شيء، لتأثرها بلغات الأعاجم، فى الشمال والشرق والجنوب. – كانت لهجاتها قد وُجدت فى وقت واحد معا، لكن اللغويين والنحويين اطّرحوا تلك اللهجات البعيدة عن لغة القرآن.. بدءا،

ولم تَرِدْ عليهم متأخرة. ولم يرد شعر بلهجات القبائل السبع، قيلَ فى كل قبيلة للقبيلة نفسها لا للأسواق الأدبية..فما حكموا عليه بالشذوذ – إذن – لم يكن من لهجات القبائل المطرحة لهجاتها بدءا، وإنما كان خطأ أو شذوذا على جمهرة اللّغة فى اللّهجات السبع المختارة، وما قول الشاعر:

أن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا قد بلغا فى الفخرِ غاياتها

إلا من الشذوذ الذى وقع فى مادة اللهجات السبع المختارة، إمّا من باب «التظرّف» أو تغليب الموسيقى على التركيب اللغوى، مثل قولهم: (أوضح كلام وأخْصرُهُ) فبنَوا (أخصره) على وزن (أوضحُ)، مع أن الأصل فيها (أكثر اختصارا)، لأنها من فعل خُماسى. والعرب تجيز فى الصرف ما لا تجيز مثله فى النحو. ولهذا.. قبلت (أخص) ولم تقبل (وأبا أباها)، ألا تراهم يقولون فى الصرف: (ويُلُمِّهِ) فيجعلون من كلمتين كلمة واحدة، ولكنهم لا يدمجون بين حركتين إعرابييتين، مُكَوِّنينَ منهما حركة جديدة؟ ذلك.. لأن الحركة إذا تغيَّرت غيّرت المعنى، أمّا التغير الصرفى، مثل الذى سبق، فلا يغير المعنى. بل هو لون من التسهيل الجائز– وليس الشاذّ– لأنه صدر عن عرب فصحاء.

– ويقول (حتى إن من كان يستمع إليهم – أى النُّحاة الذين قَدِموا إلى حلقة أحد النُّحاة وسمعهم فقال: ما لى أراكم تتحدثون فى لغتنا بشئ ليس من لغتنا. وربما كان هذا هو الذى دفع عبد القاهر الجرجانيّ إلى إعادة النظر فى النَّحو الذى هو عنده.. التعليق أو النّظم. والذى يضمّ عنده كذلك المعنى بالإضافة إلى سلامة المبنى. ولو حاولنا استخلاص طريقة لتحليل الجملة فى ضوء ما يراه الجرجانيّ لقلنا: ضرب موسى عيسى، صباحا أمام المسجد تأديبا له.

«.. عيسى، هو الشخص الذى وقع الضرب عليه. – موسى: هو الشخص الذى أوقع الضرب على عيسى. – الضرب: هو الحَدث الذى أوقعه موسى على عيسى. – صباحا: هو الزمان الذى أوقع موسى فيه الضرب على عيسى –. أمام المسجد: هو المكان الذى أوقع موسى فيه الضرب على عيسى. – تأديبا له: هو الغرض الذى أوقع موسى الضرب له على عيسى».ص – ٣٤.

– وأقول: هذا.. كلام لا يُسلَّمُ به. بل هو فهم خاصّ لمقصد الجرجانى من النظم، ومعانى النحو: وقد أغراه بهذا الكلام الجرجانى عن معانى النحو.

أمّا أن الأعرابى لم يفهم ما يقوله النحويّ.. فأمر بديهى، لأن الأعراب (وساكن المدينة الذى لم يتعلم) يفهم اللغة.. استعمالا، ولكنه لا يفهم مُصطلحات النّحو. كما لا يفهم أيضا مُصطلحات البلاغة، أو مُصطلحات العروض. أفنلغى مُصطلحات هذه العلوم التى تُضبَط حركتها بها.. لمجرد أن الإنسان العادى لا يُدرك معناها أو المقصود منها؟ إنّ البديهى أن لكل علم وفن مُصطلحاتِهِ، وكونُ الإنسان الذى لم يدرس علما لا يفهم مُصطلحاته – لا يعنى ذلك أن يدفعنا إلى إلغاء مُصطلحات هذا العلم.. الذى لا يثبت ولا ينمو إلا من خلال قواعده وقوانينه التى يضعها العلماء[1].

– أمّا عبد القاهر الجرجانىّ فلم يُعِدْ النظر فى النّحو، ولم يغيّر مُصطلحاته أو يُفكّر فى ذلك – بل لم يكن من أصحاب النحو– أصلا. وإنما استخدم مُصطلحات النّحو التى وضعها النُّحاة قبله كمُصطلحات يعبر من خلالها عن إعجاز النظم فى القرآن الكريم، وعن جمال النُّظم فى القول البليغ. وتعلّقُ الكَلِم بعضها ببعض، لا يعنى إلغاء الإعراب، لغريب أن يفهم رجل يكتب فى اللغة هذا الفهم! وإنما يعنى أنه لا يقع تعلّقٌ بين الكلم.. يعقل، أو يكون جميلا، إلا إذا رُتِّب الكلام فى النطق، حسب ترتيب المعانى فى النفس.(ص – ٥٦) خُذ توضيح الجرجانىّ لقوله تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ٩٦]. يقول:

– (إذا أنت راجعت نفسك وأذكيت حسّك وجدت لهذا التنكير وأن قيل «على حياة» ولم يُقَلْ: (على الحياة) حُسنا وروعة ولطف موقع لا يُقادَرُ قَدْرُه، وتجدك تَعدَم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهمًا..) ص– ٢٨٨.

– فأنت ترى أن الجرجانىّ استعان بمصطلحين نحويين هما: التنكير والتعريف، لكى يوضح بهما الجمال فى هذا النظم. فلم يكن جمالٌ (=إعجازٌ) فى هذا التعبير لولا ورود لفظ الحياة مُنَكَّرا، أى (حياة)، وليس الحياة.

أهذا الذى ذكره الجرجانى من (التعريف والتنكير) تغيير لمصطلحات النحو، أم – تأكيد لها؟ (ولكن، تأخذ الألبابُ منهُ – على قدْرِ القرائحِ والفُهوم).

---

(١) – لا شكَ أن الخليل – رحمه الله – قد بالغ فى تكثير مصطلحات العروض، حتى كان كثير من مصطلحاته لا يحتاجه الشاعر، ولا يصنع شاعرا ممن ليس موهوبا. وقد ولد العروض.. محترقا.

فعقد السهل وقريب من العروض كثرة مصطلحات البلاغة، وعدم جدواها فى تعليم البلاغة. أما النحو.. فشيء مختلف جدا، إذ لا يكاد يستغنى عنه أديب، أو كاتب.

أما توضيح الكاتب لجملة (ضَرَبَ موسى عيسى، صباحا أمام المسجد تأديبا له) فهو توضيح للمعنى وليس إعرابا، لأن الإعراب يجب أن يتضمن الإشارة إلى الحركات.. رفعا ونصبا وجرا وجزما. وإلا.. فكيف نعرف أن ها هنا كلمة مرفوعة وكلمةً منصوبة وكلمةً مجرورة وكلمةً مجزومة ؟

– أما ظن الكاتب أن الجرجانيّ أراد أن تكون الجُمل على غِرار الجملة التى ذكرها (الكاتبُ) – فهو نقيض – منهج الجرجانيّ، لأن الجرجانيّ رأى أن البلاغة هى فى ترتُّب الألفاظ فى النُّطق حسب ترتيب المعانى فى النَّفس، ولهذا.. لا يمكن أن يُضاهيَ قولنا(حياة لكم فى القصاص).. قول الله تعالى، وقوله الحق: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[البقرة: ١٧٩] ذلك «بسبب الفارق فى – التقديم والتأخير – الذى اهتم به عبد القاهر كثيرا. واهتمامه بالتقديم والتأخير. يعنى أنه يرى بلاغةً عاليةً فى التقديم والتأخير، على شرط أن يقع موقعه. الجرجانى كان ما رآه توضيحا لبلاغة الكلام. أمّا مثال الكاتب «فَعِيٌّ من الكلام.

– عبد القاهر.. استعان بمُصطلحات النحو فى تحديد البلاغة فى النظم: بمَ تكون؟ أبالتقديم أم بالتأخير، أبالتعريف أم بالتنكير، أبالإفراد أم بالتثنية أم بالجمع؟.. اَستعان كما يُستعان بمُصطلحات البلاغة فى باب المجاز، وباب البديع، دون أن يخطر بباله تغييرا لأيّ مُصطلح نحوى. وبديهى أنّ إعرابنا للآية السابقة ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ » ليس له أيُّ تعلّق بالبلاغة، وإنما البلاغة تأتى من نظم الكَلِم بطريقة مخصوصة متفقة مع ترتيب المعانى فى النفس. فليس كل تقديم يؤدى إلى بلاغة، وليس كل تنكير يؤدى إلى بلاغة، وليس كل إفراد أو تثنية أو جمع يؤدى إلى بلاغة. بل هذه وأمثالها تؤدّى إلى بلاغة إذا وقعت مواقعها فى النظم المتسق مع مواقعها فى النفس. ولكنها تؤدى إلى خلل فى التعبير ورداءة إذا لم تقع فى النُّظم كما وقع ترتيبها فى النفس[1].

– ومن هنا.. فقد تكون البلاغة العالية فى نظم الكلام (ترتيبه) حسب الترتيب البسيط، أى: يأتى فِعْلٌ ثم فاعل ثم مفعول به. وقد تكون فى نظمه بطريقة يقع فيها

(١) من الطريف أن أستاذ الحديث، وأنا طالب فى الجامعة – دمشق – سنة ١٩٦٤م كان فصيحا، فوكلت الجامعة له تدريس مادة – النقد – فكأنه قرأ من أجل ذلك كتابا لناقد غربى مهووس يرى أن الشعر لا يستقيم إلا (بالصور) فكان يملى علينا ذلك !! – ومن المعلوم أن الشعر الجيد قد يكون بالصور – وبغير الصور – وأن بعض الشعر المبنى على الصورة عندما لا تقع موقعها ردئ. والأستاذ هو المرحوم الدكتور صبحى الصالح.

التقديم والتأخير. فإذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾[النصر: ١] فإن الكلام ترتب ترتيبا بسيطا: الشرط (إذا) ثم الفعل (جاء) ثم الفاعل (نَصْرُ الله)، ثم جاء الجواب: فسبّح، فهذا ترتيب بسيط ولكنه فى الغاية من الروعة. أولا – لأن هذا الترتيب البسيط جرى على أساس تساوق المعانى وترتيب – تأثيرها – فى النَّفس (ترتيب تأثيرها لأن الكلام ليس نابعا من النفس البشرية وإنما هو كلام الله تعالى). وثانيا – لأن الله تعالى أضاف النّصر إلى نفسه مما أعطى الكلام شرفا ليس له لو قيل: (إذا جاء النصر والفتح)، ولأنه تعالى لم يُضف (الفتح) إلى نفسه مباشرة، مما يؤدى إلى تكرار غير ضرورى. فليس مما يحسن أن يقال: (إذا جاء نصر الله وفتح الله) بل إن العظمة جاءت من إيراد الألف واللام فى كلمة (الفتح) التى سدّت مسد الإضافة، أى: الفتح المعهود الذين تشاهدونه عن طريق انثيال الوفود الراغبة فى الإسلام.. إلى المدينة المنورة انثيالا. ثم.. كانت العظمة تأخير الجواب، فقد فصل بين جملة (إذا جاء..) والجواب جملة أخرى معطوفة عليها وهى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ثم جاء الجواب: «فسبّح..».

ولكن قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢] فأخّر يعقوب – عليه السلام – وهو فاعل كإبراهيم – عليه السلام – أخّره بعد المفعول[1] (= بنيه).. فبذلك بانت مزية النظم: إذ لو قيل: (ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما) لكان فى التعبير غمط لحق إبراهيم. فإبراهيم أبو الأنبياء ويعقوب.. حفيده. فليس من حفظ المقامات أن يتبع يعقوب إبراهيم مباشرةً، وإنما من حفظ المقامات أن يؤخر الحفيد بعد المفعول به، وبعد أن يتم المعنى، وأن يقدم الجدُّ قبل المفعول به. وهكذا.. يكون التعبير.. عادلا، لأنه وضع كلا من الرجلين فى موضعه. ومن هنا جاء جمال التعبير، لأنه اتبع منهج العدلِ.. والعدلُ.. جمال لا يعلوه جمال. أرأيت أن التزام التعبير البسيط فى سورة (النّصر) كان سبب الجمال والرّوعة. وأن التقديم والتأخير فى آية (البقرة) كان سبب الجمال والروعة – لأن كلا من التعبيرين وقع موقعه الملائم؟

---

(١) فضّلت أن أكتفى بكلمة (المفعول) من غير أن يلحقها (به) – لأن اصطلاح النُّحاة هذا ليس دقيقا، (فالمفعول به) هو الذى يُفعَل به، فإذا قيل: (سَفَدَ ذكرُالحمام الحمامةِ) كانت الحمامة (مفعولا به) – حقا. أما إذا قيل: قطف المزارعُ الثمرَ/ (فالثمرَ) ليس مفعولا به، وإنما هو (مفعول) فحسْبُ. (انظر: الرؤى النحوية– ٣/ ٧٣–٧٥).– ففيه تفصيل.

– ويقـول الدكتور عمايرة: (الاقتصار فى تقعيد اللغة وتقنينها على اللّغة المكتوبة بينما الأصل فى اللّغة أن تكون منطوقة، وبالنطق يسـتطيع المتكلم أن يعبر بتركيب جُمْلى واحد عن معانٍ متعددة. ولما كان النُّحاة قد أهملوا فى تقعيد القواعد كل ما يتعلق بالنبر والتنغيم، نتيجـة اعتمادهـا على اللّغة المكتوبة، فإننا لا نجد لهذيـن العنصرين اللذين أخذا يبرزان بوضوح فى الدراسـات اللغوية المعاصرة، وبخاصة فى الغرب/ لا نجد لهما أثرا عند نُحاة العرب إلا فيما يتعلق بالاستفهام محذوف الأداة..) ص – ٣٤.

أقول: أرجو ألا نقلّد الغرب فى كل شـىء حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ خربٍ.. دخلناه للأسباب الثلاثة الآتية:

الأول: أن العرب أساسا اعتمدوا على اللّغة المنطوقة (لا كما يقول المؤلف) لأن الكتابة، أصلا، كانت شِبْهَ معدومة عند العرب قبل الإسلام. ومن المعروف أن اللغويين جمعوا معظم اللّغة من الفُصحاء فى المدن والبادية، من خلال المشافهة.

والثانى: أن الغربى يلجأ إلى – التنغيم – للتمييز بين معنى وآخر للتركيب الواحد، لأن اللّغـة الإنجليزيّـة – مثلا – لغة نمطيّة أى: جامدة التركيـب.. غالبا، فليس أمام الغربـى إلا التنغيم ليجعل الجملـة الواحدة تعبر عن غير معنى واحد. أمّا العربى فأمامه للتعبير الواحد أكثر من صِياغة واحدة، وذلك.. يجعله يستغنى بتنوع الصياغة عن تنويع التنغيـم. ولا شـك أن جُمود التعبـير وتنوع التنغيم قصور فى اللّغـة، وأن تنوع الصياغة للتعبـير الواحد يُعد غنى فـى اللّغة، عندما يعبر كل تنوع عن ظلال للمعنى تختلف عما فى الوضع الآخر.

خذ مثلا فى الإنجليزية هذه الجملة:

If Jim hadn,t Lent me the money، I wouldn,t have been able to buy the car.

فأنت لا تستطيع أن تقدم (Jim) على (If) ولا (hadn،t) على (Jim) ولا (the money) على ما سبق ولا (to buy the car) على (I wouldn،t).

بينمـا كل هـذا.. ممكـن فى العربيّة، نقـول» إذا – جِم – لم يقرضنـى النقود.. فلن أكون قادرا على شـراء السـيارة، ونقول:..إذا لم يقرضنى جم.. أو.. جم إذا لم يقرضنى.. أو.. النقودَ إذا لم يقرضنيها جم فلن أكون قادرا على شـراء السـيارة، أو – النقودَ، إذا لم يقرضنيها جم – فعلى شراء السيارة.. لن أكون قادرا.

أهـذه اللّغة التى هى بهذه المرونة الفائقة.. أفـى حاجة إلى أن تعتمد التنغيم؟ ثم.. إن كل تغيير فى التعبير يؤدى إلى تغيير فى المعنى، حسـب نظرية عبد القاهر الجرجانيّ فى – النُّظم – أى: تغيير ترتيب الألفاظ فى العبارة، هو التغيير فى التعبير.

والثالـث: أن التنغيـم المتنوع للعبارة الواحدة فى الإنجليزيّة.. جعل فيها شـرخا بين المنطـوق والمكتوب لا يمكـن رأبُهُ، لأن حروف كثير من الكلمات جـاءت بناءا على تنغيم واحـد، وأضحـت مفارقة لأنواع التنغيم الأخرى للكلمة نفسـها، ولكـى يتغلب الإنجليز والأمريكان على ذلك.. يحاولون أن يكتبوا الكلمة فى معاجمهم مرتين: مرة.. تبعا للصورة التى كانت عليها الكتابة، أيام كانت تنطق نطقا معينا قبل عدة قرون. ومرة.. بين قوسين تبعـا لما تطور لـه النطق فى الحاضر، خذ مثلا.. (Emulate) ومعناها: تَشَـبَّهَ به لفظها المكتوب (إمْيولَيت)، ولكنها تلفظ هكذا، كما كتبت بين شرطتين /Emuleit/!! ولفظها: إمجوليت، ولفظها الحرفى (أميولاتى)!!.

–هـم واقعـون فى (حَيْصَ بَيْصَ)، يعزّ عليهم أن يَطّرحوا الخط القديم وأن يكتبوها كما ينطقونها، حسـب الحروف التى بين شـرطتين. وهم غير قادرين على إعادة أصواتهم كما كانوا عليه من قبل قرون أو عقود!

– ونحـن ننطـق كما نكتب – علـى الإجمال – ونكتـب كما ننطق، بفضـل القرآن الكريـم– الذى أحدُ علومه، وهو علم التجويد، حفظ الصوت العربى نقيا فى الفُصحى كما كان فى الجاهلية، وكما نزل به القرآن الكريم على قلب رسـولنا – محمد صلى الله عليه وسلم – ينطقه بلسانه الشريف الذى أخذه عنه الصحابة – رضى الله عنهم – بالمُشافهة. وهكذا، ينتقل صوت الحروف من جيل إلى جيل بالمُشافهة حتى يوم الناس هذا.. بل حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، دون تحريف.

– أنعدل – إذن – عن تنوع التعبير إلى التنغيم، لأن الغرب ينغّم، والتنويع باقٍ ثابت ومن طبيعة لغتنا، والتنغيم متغير لا يسْـتقر على حال، مما يجعل اللّغة تنتقل، مع الزمن إلـى لغة أخرى، أصواتا وحروفا؟ – التنغيم.. مُتغير، لأنّ منحى الصوت يتغير، حسـب البيئة والظروف، وطبيعة الحياة.. فيتغير الصوت، وتتغير اللّغة، أو تنحرف عن أصولها، وهـذا.. نجت منه العربيّة – لغة القرآن. ثم.. أنتبع تنغيم الجزيرة العربيّة، على تعددة، أم مطّ الصوت الشامى أم خطفه فى اللهجة المصرية، أم انحباسه ثم اندفاعه فى المغربية؟ أم تُحْمَلُ كل هذه البيئات على تنغيم أهل مكة فنكلِّفهم ما لا يُطاق؟

– ويقول: (ولعل فى هذا.. ما يفسر لنا بوضوح اتساق لغة – أكلونى البراغيث – مع اللّغة العربيّة السليمة. ولا يحول دون قبولها، مع كثرتها فى كتب التراث، ومع وجودها فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف، يقول تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣]، وجاء فى الحديث: «يتعاقبون فيكم – ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» ص – ١٩٢.

– وأقول: أولا لم يأتِ الكاتب بجواب: (ولا يحول دون قبلوها، مع..). وهو غالبا.. إلا لأن النُّحاة اعتبروها شاذة ساقطة.

وثانيا: خلط الكاتب بين نوعين من الاستعمال: الأول – (أكلونى البراغيث). والثانى: «وأسرّوا النجوى الذين ظلموا».

فعبارة (أكلونى البراغيث) تختلف اختلافا جوهريا عن عبارة القرآن: لأن (البراغيث) لا يستعمل معها (واو الجماعة) عادةً، كما لا تستعمل مع كل جمع مذكر لغير العقلاء إلا لغاية البلاغة، وإنما تستعمل مع العقلاء فقط. – وهنا نقول: لا يجوز أن أقول: (أكلونى – اللصوص) قياسا على الآية السابقة بدون غاية بلاغية، أما الآية فاستعمالها صحيح، لأن (الواو) تردُ مع العقلاء (الذين ظلموا)، ولأنها جاءت لغاية بلاغية.

– بيد أنى لا أوافق الكاتب إذ يقول: (فما كانت الواو فى «وأكلونى البراغيث» إلا لتوكيد الفاعل) ص:١٩٣ – بعد أن أجرى عددا من صور التحويل على العبارة التى تبدأ بقوله: (أكل البراغيثُ هم إياى) – أقول: لأن التوكيد لم يرد فى اللّغة سابقا المؤكّد – بفتح الكاف – وتحويلاته هذه – إلى خطئها – أكثر تعقيدا من (علل النحو) التى اعترض هو عليها، يقول المؤلف: (فتكون الجملة التوليدية التى تتضمّن المعنى القريب (أكل البراغيثُ إياى) – VSO – تتحول إلى: (أكل البراغيثُ البراغيثُ إياى VSSO –) أو: (أكل البراغيثُ إياى)، فالتحق الضمير بالفعل، ولكن برسم آخر، وهو – الواو – التى هى لاحقة تعبر عن (البراغيثُ إياى)، ثم جرى فى الجُملة تحويل آخر، طِبقا لقواعد النّحو التحويلى، فأصبحت: (أكلونى البراغيثُ) بإضافة نون الوقاية التى لها وظيفة صوتية نصّ عليها عُلماء العرب فى كثير من أعمالهم، فما كانت الواو إلا لتوكيد الفاعل فى هذه اللهجة) ص – ١٩٢.

– بالله عليك: هل صحيح أن ذِهن العربى الأمُّى يتّسع لكل هذه التحويلات المُعقدة؟ وإذا اتسع.. أتظن أن أحدا يُطيق أن يتعلّم لُغة، بعضُ عباراتها تمرّ بكل هذا التعقيد،

ولـو كان هذا الأحد هو الخليل ابن أحمـد الفراهيدى فى القديم.. صاحب العقل الرّياضى العبقرى، أو أنشتاين فى الحديث.. صاحب النّظريّة النّسبية؟!

– بلـى، لا أوافقـه، لأنّ التوكيد لم يَرِدْ سـابقا للمؤكد – كما أسـلفنا– ولأن الواضح لا يؤكد بالغامض. إن الضمير غامض والاسـم واضح، فـلا يمكن أن يؤكد الضميرُ (=الواو) الاسمَ الظاهرَ.

– والحـق عنـدى أن (البراغيث) فى هذه العبارة هـى (خبر) لمبتدأ محذوف (فى نحو اللّغـة) تقديـره: (هى)، فعندما قال: (أكلونى).. تنبـه إلى أن العبارة غامضة أيْ: أخصُّ البراغيـثَ: البراغيث.. أى هـى البراغيث، أو جاءت – البراغيـث – للتوكيد، أو هى منصوبةٌ على الاختصاص.

أمّا لماذا لا تصح الواو مع البراغيث أصلا، عندما تُسـتعمل اسـتعمالا حقيقيًّا، ولا يصح هذا النوع من الاسـتعمال، لغةً معتمدةً.. وإنما صحت هنا؟ فذلك.. لأنّ الأعرابى اسـتعمل الواو استعمالا – مجازيا – (من باب الاستعارة التصريحية)، فلما أكثرت البراغيثُ لدغهُ كبرت فى إحساسـه حتى تصورها رجالا يُقرِّصونه، فقـال مَلهُوجا: (أكلونى) ثم تنبه أن ليـس من رجال، فأردف: البراغيث، أى: هـى البراغيث، أو – أخصُّ البراغيثَ، ومع أن هـذا التحليـل طويل فى الكلام « غير أن العبارة الأصلية والجواب يلمعان فى ذهنه فى طرفه عين».

– وقريب من هذا التعبير ما ورد فى القرآن الكريم. قال تعالى عن الكافرين:

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢١] – فلَم يقولوا: (لِمَ شهدتِ؟)

وإنما خاطبوها خطاب العقلاء، لأن الله تعالى أنطقها.. فشـهدت عليهم، فصارت فى شـعور الكافرين عاقلةً. والبراغيث.. تصرَّفت تصرُّف العُقلاء الأعداء، فأكثرت من تقريص هذا الأعرابى الذى لا عهدَ له بالبراغيث، فتضخّمت مشـاعره بها، فشكا ما أصابه منها، وكأنه يشكو من رجال اعتَدوْا عليه بالضرب أو بالتقريص.

– ومن حيثُ شـخصنةُ غير المشـخصن أصلا، وتحويلُهُ إلى عاقل يخاطب (سـواءٌ أجاء مفردا – أم جاء جمعا) – لا يختلف قول الأعرابى هذا عن قول ابنة طريف التى تضخم فى وِجدانها الحزين الحسّـاس أشجارُ الخابور، فأحسّت أنها أحياء عاقلة، ولذا عتبت على

هذه الأشجار التى لم تُسقط أوراقها، حُزنا على أخيها – ابن طريف، الذى قُتل فى معركة من المعارك، قالت: (فيا شجر الخابور)، فشخصنته، وأعطته سِمة العقلاء، وما ينتظر من العقلاء، من تعاطفٍ، تعاطف بعضهم مع بعض، ومواساة بعضهم لبعض.

قالت (فيا شجر الخابور – مالكَ مورقا كـأنـكَ لـم تـجـزْع على ابن طريفِ!).

– إذن.. القضية هى قضية بلاغية أصلا، وليست قضية لغويّة، ومع ذلك.. فصدر اللّغة يتّسع لمثل هذه التغييرات اللغوية التى تقتضيها حاجات بلاغية، لأنّ اللّغة ذات منطق مَرِن، فهى (أى اللّغة العربية) تَعى أن دورها الحقيقى – الوظيفى أن تعبِّر عن معانى العقل، وعن خلجات النّفس، ولهذا.. فهى ترى من وظيفتها وواجبها أن تكون مُستعدة للتّعبير عن كِلا وجهى حياة الإنسان. أما تراها اتسعت للتعبير عن العقل الكلى والوِجدان الكلى – المتمثّلين فى القرآن الكريم – أولا، وفى الحديث النبوى الشريف – ثانيا – أبلغَ تعبير وأدقَّ تعبير، فكان التعبير فى القرآن مُعجزا، وفى الحديث النبوى، بلاغة تنزل دونها بلاغة الشعراء والبلغاء[1]؟

– والآن – أظن أنه قد وضح أن عبارة القرآن: «وأسروا النّجوى – الذين ظلموا» وعبارة الحديث: «يتعاقبون فيكم – ملائكة بالليل وملائكة النهار»، تختلف عن عبارة (أكلونى البراغيث) اختلافا جوهريا.. فالعبارتان لغة معترف بها، لأنّ (الواو) فى (أسروا) هى واو الجماعة قد استعملت على وجهها، ولأنّ عبارة (الذين ظلموا) هى خبر لمبتدأ محذوف هو (هم) أى: جاء الضّمير (هم) جوابا لسؤال مقدرٍ ولازم: (من هم الذين أسروا النجوى؟) والجواب: «هم» أو هى توكيد، أو فى محل نصب على الاختصاص).

– ومثلها تماما عبارة الحديث: (ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) فهى خبر لمبتدأ محذوف جاء جوابا مُقدارا لسؤال مُقدّر وهو: (من هم الذين يتعاقبون؟) – وأما (الواو) فى (أسروا) وفى (يتعاقبون).. فهى ضمير متصل فى محل رفع فاعل. أو هى توكيد، أو منصوب على الاختصاص.

– وكما ترى.. فإنه يجوز إعرابان ضعيفان لكل من (البراغيث/ الذين ظلموا/ ملائكة بالليل) الأول – هو البدل، فالبراغيث.. بدل من الواو – والذين.. بدل من الواو – و(وملائكة) بدل من الواو. وكلها.. بدل مطابق. والإعراب الثانى: النّصب على – الاختصاص – أى:

(١) فى كتابى (منابعُ الشعر، ومكانةُ الشاعر) – استخلصت إحدى عَشْرَةَ – خاصيةً، يتفوق فيها الحديث الشريف على أجود الشعر (ص – ٧٠ – ٧٥).

أكلونى (أعنى البراغيث)، و«أسـرّوا النّجوى» (أعنى: الذيـن ظلموا) ثم.. يتعاقبون فيكم (أعنى: ملائكة بالليل). مع وجوب حذف الفعل (أعنى) فى اللفظ، إنما هو يذكر تقديرا، شأنه دائما مع النصب على الاختصاص، أى – مع نصب الاسم المخصوص.

– أمـا «ثـم عموا وصموا – كثـير منهم» فهى مختلفة ومُتّفقة مع «وأسـروا النجوى..» لأنّ (كثيرٌ) هى بدل بعض من كل، أىْ: هى بدل من الواو فى (عموا) وفى (صموا)، لأنك لا تجدها جوابا مكافئا لسـؤالك: من هم الذين عموا وصموا؟ إذْ لا يصح أن يكون الجواب كثيرا منهم، وإنما جواب السـؤال هو: هم بنو إسـرائيل، فتأكّد بذلك بدلية (كثيرٌ منهم). والله تعالى أعلم.

مُلاحظات لغويّة:

فى الصّفحات السـابقة ناقشـنا أفكارا لغوية، والآن نُناقش بعض الاستعمالات اللغوية التى جانَبَها الصّواب، وهى:

١ – يقـول الكاتب: (ولكننـى كنت أنتظـر لحظة منه لأفرغ لذوى الحقوق شـيئا من حقوقهم) ص٨.

– وأعتقد أن كلمة (لأفرغ) اسـتعملت فى غير موضعها، والصواب مكانها (لأقدم) لذوى الحقوق شيئا من حقوقهم). أو أن كلمة سقطت، وهى (لإعطاء) – ذوى الحقوق–...

٢ – ويقـول: (وإنما اسـتخدم [مصطلح عِلم اللّغة] ليُشـير إلى البحـث فى أصل اللّغة ونشأتها وما إن كانت توقيفا أو اصطلاحا أو تقليدا ومحاكاة) ص – ١٥.

– وأقـول: إنّ (إنْ) هذه شـرطية، ولا معنى للشـرط هنا.. ولذلـك فالصواب أن يقال: (ليشـير إلى البحث فى أصل اللّغة ونشـأتها.. أكانت توقيفا أم اصطلاحا أم كانت تقليدا ومحاكاة؟ أى: الصواب.. استعمال الاستفهام، أما الشرط.. فلا شرط هنا، وإلا.. فإذا كان يصح الشـرط –هنا – وفعله هو (كانت).. فأين جوابه ولو تقديرا؟ إن هذا اسـتعمال خاطئ يُستعمل كثيرا فى العصر الحاضر.

٣ – ويقول: (ولكن أحدا من هذين لم يشرح معنى مصطلح فقه اللّغة) ص – ١٧.

– يدلّـك على خطأ هذا التعبـير أن تكمل بعده: (ولكن شَـرَحَهُ الآخر). والصواب: (ولكن هذين الرجلين لم يشرح أيّ منهما معنى مصطلح فقه اللّغة) هذا التعبير. ينفى الشرح عـن (مـن كلٍّ منهما)، أى: ينفيه منهمـا الاثنين، ولكن تعبير الكاتب ينفى الشّـرح من أحدهما، ولذا.. ويجوز أن يكون وقع من الآخر.

٤ – ويقـول: (ويعتمـد هذا البعد على أن الوحدات التى تكون اللّغة تكتسـب قيمتها الدلالية اللغوية بتميّزها عن بعضها، اعتمادا على ما فيها من فروق) ص – ٤١.

أقـول– والخلل فـى (عن بعضها) والصواب (بتميزهـا.. بعضها عن بعض) لأن معنى (بتميزها عن بعضها) (بتميّزها كلها عن بعضها)، وليس هذا هو المعنى، بل المعنى.. بتميّز كل واحد منها عن الآحاد الأخرى، أو بتميّز بعض الوحدات عن الوحدات الأخرى.

٥ – ويقول: (كتب كتابه الذى اشتهر به وعُرف كما لو لم يكتب غيره) ص٤٢.

أقول – معروف أن (لو) لها معنيان فى العربيّة ليس غير.. الأول – أنها للشرط، مثل: لو اجتهدت لنجحت. أو: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والثانـى – التمنى، ومثالـه: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ « [القلم: ٩]، فهل (لو) عند الدكتور المؤلف لها أحد هذين المعنيين؟ طبعا، لا. وإنما اسـتعمالها عنده هو ترجمة لتعبير إنجليزى. وصواب التعبير هو: (كأنه لم يكتب غيره).

٦ – ويقول: (ونرى أن فى بعض هذه الأسس أو الجوانب غموض وتعميم) ص٦٨.

– الصواب: (غُموضا وتعميما)، لأن (غُموضا) هى اسم (أنّ) مؤخّر، و(تعميما) معطوف عليه. وقد يكون خطأ فى الطباعة.

٧ – ويقول: (فمِمَّا هو واضح من الأمثلة السـابقة.. أن الترتيب أمر يُراد به سـرا من أسرار العربيّة) ص – ٩٢.

والصّواب: (سِرٌّ) لأنه نائب فاعلٍ للفعل المبنى للمجهول (يُراد). والله تعالى أعلم.

انتهى القسم الأول – نحمد الله تعالى على– ما – مَنّ به علينا.